بين الانكسار و الانتصار

١٢٥٨–١٢٦٠ م

محطات تاريخية ذات دروس
للحاضر و المستقبل

كتبه
فيصل الزامل

مقدّمة

- قال شوارتزكوف ، قائد قوات عاصفة الصحراء :-

(عندما صدر قرار ترقيتي سنة ١٩٨٧ إلى قائد القوات الأمريكية في الشرق الأوسط ، اتجهت فوراً إلى معهد الدراسات الاستراتيجية و سجلت في عدة مواد عن الشرق الأوسط ، تركيبته السكانية ، التاريخ ، الاقتصاد ، النفط ، الأنظمة السياسية ، كنت أجلس في الصف الأول بالرغم من أن ضخامة جسمي كانت تمنع الجالسين خلفي من رؤية المحاضر ، لم أهتم ، كنت أريد أن أسمع و أستوعب كل معلومة ، رغم أنني أساساً نشأت في إيران عندما كان والدي يعمل في القوة الأمريكية المكلفة بحماية الشاه محمد رضا) ..

هذه الحادثة هي مدخل لبيان أهمية معرفة و دراسة المحطات التاريخية الكبرى ، و هو أمر يهتم به الذين يديرون مسار الأحداث في العالم ليعرفوا كيف يوجهونها لصالحهم أو لدفع الضرر عنهم ، و يتجاهله العامّة بل و بعض المثقفين بالمفهوم العربي للثقافة ، و لهذا تم إعداد هذا الكتيب ، و هو يحوي مقارنات بين الحدث القديم و الواقع المعاصر في منطقة الشرق الأوسط بغرض الافادة من تلك التجارب، وسوف نتوقف عند أي حدث يمكن أن يتكرر من جديد و نرصده ، و نقرب العدسة المكبرة منه كي نتفحصه مثل أي ميكروب سام يتم تركيب المضاد له ، مثلما تفعل المختبرات الطبية ، فقد فتكت أمراض عديدة في هذا الزمان بعالمنا العربي والإسلامي و بشكل لا يمكن معه غضّ الطرف عن أسباب الانكسار ، و اعتبارها مجرد حدث تاريخي عفى عليه الزمن ، فالوباء يموت ثم يبعث من جديد في غياب المضادات المتمثلة بالوعي ، و مثلما نهتم بنشر الوعي الصحي بالأمراض السارية وطرق الوقاية منها ، فإن الكوارث التاريخية التي تسببت

في تراجع حضاري شامل وتهديد وجود أمة أولى بالدراسة ، فهذه الأمة كانت شريك أساسي في صناعة الحضارة البشرية وقد آن لها أن تعود إلى تلك المكانة وهي مكانة لا تقوم على المغالبة والمصارعة ، فقد تعبت البشرية من الحروب العبثية سواءً كانت جماعية أو إقليمية تسببت في تغييرات كبرى عبر الهجرات القسريّة و الزعزعة المستمرة للأمن الدولي ، والحاجة ماسة اليوم إلى تكاتف العالم لمكافحة الفقر و المرض و الجهل في جميع أنحاء المعمورة ، و لبلوغ هذا الهدف ، وقع الاختيار على حقبة من الزمن جمعت الانكسار والانتصار، وكلاهما كان كبيراً ، إلى أقصى الحدود ، انكسار هجوم المغول على العراق و الشام ، و انتصار المسلمين عليهم في عين جالوت ، الحدث الأول في عام ١٢٥٨ و الثاني بعده بعامين فقط ، في ١٢٦٠ ، و بين الحدثين مسافة كبيرة جداً جداً من الفوارق التي تستحق التأمل و الاطلاع على كيفية النهوض ، وقد تضمنت هذه المذكرة ..

(الخلاصة) في ١٠ وقفات بين الانكسار والانتصار

و نحن ننصح بقراءتها مرتين ، الأولى قبل الاطلاع على التفاصيل ، لمن ليس لديه وقت ، و الثانية بعد الانتهاء منها لمن يرغب .

- في هذه الوقفات لن نبالغ في وصف الناس ببطولات خارقة ، و أيضاً لن نبخسهم حقهم فالظروف التي عايشوها من نزاعات وضعف عام جعلت الإنجاز الذي حققوه كبيراً جداً قياساً بذلك الضعف العام في تلك الفترة الزمنية (١٢٥٨- ١٢٦٠ م) و أيضاً قياساً بحجم الجيوش المغولية الجرارة التي سبقها من الرعب و التدمير ما يفوق الوصف .
- هناك من برر انهزام المغول في معركة "عين جالوت" بأنه نتيجة لخطأ هولاكو الذي خفض حجم الجيش و هو كلام غير دقيق ، فقد نجحت خطة قطز في إرساله جيشاً صغيراً بقيادة بيبرس و تحرك الجيش الرئيسي بعده بأيام ، وعندما شاهد جواسيس وكشافة المغول الجيش الأول الصغير تهاونوا فلم يخرج جيشهم الرئيسي لملاقاته وبقي في سهل البقاع ، لبنان ، و أما في معركة عين جالوت فقد التحق كامل جيش المغول بالميدان ، و نجحت خطة قطز في إخفاء الجيش الرئيسي عنهم ، و بعد أن استدرجهم بيبرس لدخول سهل عين جالوت، أغلق عليهم المخارج و دخل الجيش الرئيسي بقيادة قطز ، وأطبقوا على التتار من الجانبين .
- الخطأ الفعلي الذي حدث هو في جانب الدولة العباسية التي خفضت عدد الجند و قللت من حجم الخطر الذي داهم عاصمة الخلافة ، فضلاً عن مراسلاتها السابقة مع جنكيز خان و حثه على المسير إلى الغرب ، لمحاربة الدولة الخوارزمية المسلمة ، فحق عليهم القول المأثور (أكلت يوم أكل الثور الأبيض) .

- يجب أن ننصف أمتنا ، ومن يستكثر علينا وقفة مع أوقات " عزة وانتصار" فكأنما يطلب منا البقاء في القاع إلى ما لا نهاية ، و إنّما تنهض الأمم باستلهامها لأسباب النصر ودراستها لمسببات الهزيمة ، و لا معنى لإسكات تلك المراجعة و الفحص إلا الانسياق وراء الهون و الهوان ، والتبعية الذليلة ، و هو ما لا يقبله أهل الهمة العالية ، و الإحساس بالكرامة .

(١٠) وقفات بين سقوط بغداد ١٢٥٨ م و انتصار عين جالوت ١٢٦٠ م

(١) على المستوى العسكري ، قام الخليفة العباسي بتسريح غالبية الجند ، و خفض عددهم من ١٠٠,٠٠٠ الى ١٠,٠٠٠ جندي ، يقابل ذلك العكس تماماً في مصر ، حيث أصدر قطز قرار العفو العام عن المماليك البحرية واسترجع جيشاً كاملاً كان قد خسره بسبب الخلافات السياسية (انظر التفاصيل) .

(٢) كان الخليفة العباسي قد كدس الذهب في أحواض حفرت تحت قصره ، و لمّا أخرجوه و جمعوه كان مثل الجبل الشاهق ، وعاتبه هولاكو و هو ينظر إلى جبل الذهب قائلاً : (لماذا احتفظت بكل هذا تحت قصرك ؟ لماذا لم تبذله لبناء جيش قوي تحمي به بلدك ؟ بل و تعبر بجيش عظيم إلى نهر جيحون فتمنعنا من عبوره إليك ؟) ، في المقابل ، في مصر ، رفض العز بن عبد السلام فرض الضرائب على الناس قبل أن يخرج الأمراء و الوزراء جميع ثرواتهم المكنوزة و يضعوها في يد الدولة فإذا لم تكف أجاز للدولة فرض ضرائب على الناس بشكل يتناسب مع قدرة كل منهم ، وقد فعل هذا القرار فعله في الشعب و أوصلت هذه خطوة كبيرة إلى الشعب في مصر

أبلغ رسالة ، أنه العدل ، فالدولة العادلة تنتصر، و إن كانت كافرة، فكيف إذا كانت مسلمة ؟

(٣) كانت الخدمات العامّة في العراق في أسوأ أحوالها ، و بلغت الغاية في فترة السيل المدمر الذي غمر معظم المدن ، و لم يعلم عن الخلافة العباسية عناية باحتياجات الناس للخدمات العامة في العراق فضلاً عن خارجها من الولايات التابعة لدولة الخلافة ، في المقابل ، بذل قطز جزءاً من المال الذي تم جمعه في إصلاح الترع والمجاري المائية و بناء الجسور لعبور الأنهار، و غيرها من خدمات لا غنى للناس عن رؤيتها عيانًا بيانًا لمعرفة جدية الدولة في الإصلاح .

(٤) لم ينتظر قطز وصول جيش المغول إلى مصر ، مثلما فعل الخليفة العباسي الذي رفض الخروج لملاقاة المغول و تحصن في قصره و السبب الرئيسي لتلك المفارقة أن قطز لم يألف حياة الترف بل نشأ جندياً و اعتاد على خشونة العيش ، و لن تجد أميراً مترفاً قد ركن إلى حياة رغيدة قادراً على النزول بهمّة ونشاط إلى ساحات العمل و ميادين البذل و العطاء ، فالليل عنده سهر و النهار وقت البطر و العبث .

(٥) حقق قطز التفافاً شعبياً حول قراراته حينما ضرب المثل بنفسه في البعد عن الملذات و هو أمر عرفه الناس في مصر ، بينما عرف أهل العراق و ما جاورها عكس ذلك تماماً عن الخليفة العباسي الأخير، و أيضاً عدد ممن سبقه من الخلفاء الذين انشغلوا بملذاتهم عن شؤون الدولة ، و شتان بين حاكم مشغول بالاستحواذ على الأراضي و توظيف الأقارب و الأصحاب و آخر يبتعد عن الشبهات صغيرها قبل كبيرها .

(٦) لجأ الخليفة العباسي إلى أسلوب التذلل لعدوٍ شرسٍ لا يعرف الرحمة فزاده التذلل تجبراً و غطرسة ، و فشت تلك الروح الهمجية في جنوده فكان الجندي المغولي يخرج الرجل في العراق من بيته ليذبحه أمام بيته ثم يقول له انتظرني في مكانك حتى آتي بالسكين ، فيدخل البيت و يعود ، والرجل في مكانه يرتجف من الخوف ، في المقابل قرر قطز إعدام الوفد الذي حمل رسالة التهديد من هولاكو، وكانت هذه رسالة معاكسة انتقل أثرها بقوة إلى كافة أفراد الجيش وعموم الناس في مصر، وولدت لديهم عقيدة قتالية هائلة ، والتي لا قيمة بدونها لأي جيش في العالم مهما بلغت أعداده و حتى قدراته المادية ، فالروح القتالية هي التي تصنع الأعاجيب في الحروب .

(٧) فشل الخليفة العباسي في تطويق الخلافات الداخلية المذهبية ، بينما نجح قطز في تحييد الصليبيين في فلسطين و سائر بلاد الشام ، فضلاً عن أقباط مصر الأمر الذي صنع له أرضية صلبة على المستوى اللوجستي أثناء مسيرته من مصر إلى موقع المعركة في فلسطين ، عين جالوت، و هي مسافة طويلة لجيش يتجه إلى أخطر مواجهة عرفها تاريخ المنطقة ، و بغير تلك السياسة الحكيمة فإن ظهر الجيش المصري كان سينكشف لأي هجوم غادر من خلفه ، قارن ذلك مع تفكك الجبهة الداخلية في بغداد وتحول عموم العراق إلى ما يشبه الحرب الأهلية بينما العدو يقترب منها بجحافله !!

(٨) لم يكن لعلماء المسلمين في العراق دور في حشد الساحة لمواجهة العدوان مثلما كان عليه الحال في كل من مصر و الشام ، فعلى سبيل المثال ، أسهم علماء الشام في التعبئة المعنوية بين الناس و الجنود، و منهم أن ابن تيمية الذي شارك في المعارك ضد المغول ، وخطب في الجيش بالحث ورفع الهمم ، بل و حلف لهم قائلا :- (إنكم

في هذه المعركة منصورون) ، فقيل له (قل إن شاء الله) فقال مقولته الشهيرة (أقولها تحقيقًا لا تعليقًا) ، يشير إلى ما جرت به العادة من استعمال ضعيف لهذه الكلمة ، مؤكدًا على أهمية اليقين في الدعاء والرجاء ، فحقق الله لهم النصر.

(٩) لم يكن قطز حريصاً على الاستمرار في السلطة ، أعلن ذلك قائلاً لأمراء المماليك «إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يأتي ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم في السلطنة ما شئتم » ، بل و طمأن صاحب دمشق و حلب ، الناصر يوسف صلاح بأن هدفه الوحيد هو قتال المغول ، و أما الملك فإنه يعتبر نفسه في مصر نائباً له وأقسم قطز في كتاب أرسله له بالأيمان أنه لا ينازع الملك الناصر على الحكم وأكد له أنه نائبًا له في مصر، ومتى حل بمصر أقعده على كرسي العرش، وقال: « وإن اخترتني لخدمتك هناك ، فإني و من معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك ".

(١٠) لم تكن تلك التهدئة للأجواء من جانب قطز خالية من الحزم مع الخارجين على وحدة الكلمة فقد اتخذ إجراءات احترازية مع أصحاب الأهواء ، ممن يهيجون عليه بعض الطوائف في الأرياف المصرية لغايات منفعية قصيرة ، مثل الأمير علم الدين سنجر الغتمي ، و الأمير عز الدين النجيبي ، والأمير شرف الدين المعزي، والأمير سيف الدين خال السلطان المنصور علي بن المعز، و الطواشي شبل الدولة كافور، و الطواشي حسام الدين الجمدار، فاعتقلهم ووضعهم في سجن القلعة ، ثم بدأ قطز في اختيار أركان دولته وتوطيد دعائم دولته ، فاستبدل الوزير ابن بنت الأعز، وولّى بدلًا منه زين الدين يعقوب، وأقر الأمير أقطاي ، وفوّض إليه بجانب زين الدين يعقوب

تدبير العساكر واستخدام الأجناد وسائر أمور الجهاد والاستعداد للحرب ضد التتار.

هذه الإجراءات في إعادة تشكيل منظومة الحكم لم يحدث منها شيء في حالة الخليفة العباسي الذي اكتفى بالانتظار، والتردد في حسم خلافات الشخصيات السياسية التي نقلت خلافاتها إلى الناس ، وأضرمت النارفي الجبهة الداخلية للدولة . و انشغل السياسيون ببعضهم البعض بدلاً من استنفار الأمة بكل مقدراتها وشرائحها لمواجهة الخطر.

" الانكسار والانتصار " - بين ١٢٥٨ - ١٢٦٠ م

أولًا : هجوم المغول على بغداد ١٢٥٨ م

(٦ نقاط)

١- هاجم المغول بغداد في ٢٣ محرم ٦٥٦ هـ الموافق ١٠ فبراير ١٢٥٨ م وقتلوا من أهل بغداد و بقية مدن العراق ما لا يحصى من النفوس ، قيل ٨٠٠ ألف انسان ، و أحرقوا الكثير من المُؤلَّفات القيِّمة والنفيسة في مُختلف المجالات العلميَّة والفلسفيَّة والأدبيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة وغيرها، بعد أن أضرم المغول النار في بيت الحكمة، وهي إحدى أعظم مكتبات العالم القديم آنذاك، وألقوا بالكُتب في نهريّ دجلة و الفُرات، كما فتكوا بالكثير من أهل العلم والثقافة، ونقلوا آخرين معهم إلى منطقة الخانيَّة في فارس، ودمَّروا الكثير من المعالم العُمرانيَّة من مساجد و قُصور وحدائق ومدارس ومُستشفيات .

(جيش المغول يحاصر بغداد ١٢٥٨ م)

٢- لنرجع الآن إلى ما قبل سنة ١٢٥٨ للتعرف على مقدمات هذا الحدث الجسيم ، فقد أدت الخلافات بين الدولة العباسية في بغداد من جهة، ودولة الأتراك السلاجقة من جهة أخرى ، إلى استعانة الخليفة العباسي

بالدولة الخوارزمية ضد دولة الأتراك السلاجقة - إيران حالياً ، ويشكل فيها العنصر التركي ٢٥% متمثلاً بالآذريين الإيرانيين - وكانت تلك فرصة ثمينة كي تتمدد سلطة الدولة الخوارزمية وموقعها وراء إيران حالياً - جمهوريات وسط آسيا - باتجاه بلاد العرب ، التقى السلطان الخوارزمي تكش بالقائد التركي ، السلجوقي طغرل ، في معركة بالقرب من الري وهي جزء من طهران حالياً ، في سنة ١١٩٤ م ، وانتصر تكش و قتل طغرل ، وبِذلك، حلَّت الدولة الخوارزميَّة محل الدولة السُلجوقيَّة التركية التي حكمت لفترة من الزمن كل من (إيران وأفغانستان ووسط آسيا وصولاً إلى كاشغر في الشرق) و بعد انتصار دولة خوارزم تمدد نفوذها فشمل فارس والعراق ، وراح زُعماؤها يتدخلون في أُمور الخِلافة العباسية في بغداد وخارجها ، بل وقرروا الاستيلاء على بغداد ، عندئذ سعى الخليفة العباسي أبوالعبَّاس أحمد الناصر لِدين الله بِشتَّى الوسائل أن يحُد من أطماع الخوارزميَّة فاتجه نحو الاستعانة بالمغول ضدهم.

---

* ملاحظة * دعمت إيران أرمينيا عام ١٩٩٤، لفصل جزء من أذربيجان عن الدولة الأم ، إقليم (قرة باخ) لإيجاد حاجز جغرافي سياسي بينها و أذربيجان ، حيث تتركز أغلبية الآذريين الإيرانيين في الشمال المحاذي لأذربيجان وهم من أصل تركي، ما يمثل هاجس مطالبتهم يوماً ما بالاتحاد مع أذربيجان.

رغم أنهم مسلمون، ظنًا منه أنه بذلك يؤمّن حدوده الشرقيَّة منهم ، وقد أيَّد ابن الأثير هذه الرواية في معرض كلامه عن شخصيَّة هذا الخليفة العباسي حين قال: « وَكَانَ سَبَبُ مَا يَنسُبَهُ العَجَمُ إِلَيْهِ صَحِيحًا مِن أَنَّهُ هُوَ

مَن أَطْمَعَ التَّتَرَ فِي البِلَادِ وَرَاسَلَهُم فِي ذَلِك، فَهُوَ الطَّامَّةُ الكُبرَى الذِي يَصْغَرُ عِندَهَا كُلَّ ذنبٍ عَظِيمٍ » .

كتب الخليفة العبَّاسي إلى جنكيز خان يحثه على العُبور إلى البلاد الإسلاميَّة عارضًا عليه استعداده لِمُهاجمة الدولة الخوارزميَّة من الغرب ، إذا هو هاجمها من الشرق، ولكنَّ جنكيزخان لم يُعرتلك الرسالة أي اهتمام نظرًا لارتباطه بِمُعاهدة تجاريَّة مع الخوارزميين، ولكنَّ عندما أقدم حاكم مدينة أوترار الخوارزميَّة على الفتك بِقافلة مغوليَّة ، ثارغضب جنكيزخان فاجتاح الدولة الخوارزميَّة وخِلال أقل من سنة في ١٢٢٠ م سيطر على إقليم ما وراء النهر سيطرةً تامَّةً مُحكمة فاستولى على بُخارى و سمرقند، وبعدها حاصر عاصمة خوارزم وفتحها، وأسقط الدولة الخوارزميَّة إلى الأبد وذلك في سنة ١٢٣٠م وارتكب المغول فيها مذابح بشعة ، وأصبح الطريق نحو جنوب غرب آسيا - الشرق الأوسط - مفتوحًا أمامهم .

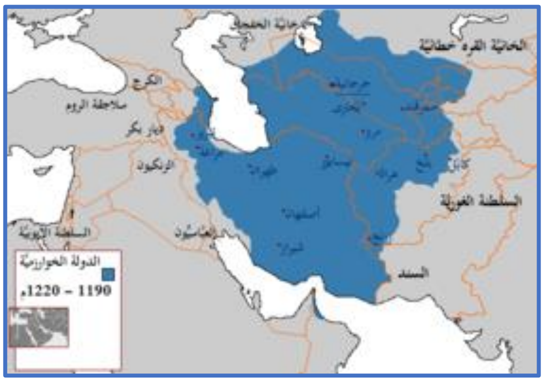

الدولة الخوارزمية

الدولة السلجاقية

طغرل – مؤسس الدولة السلجوقية

انحسرت الدولة السلجوقية إلى شمال إيران ، وبعد موت جنكيزخان اتخذ خلفاؤه سياسة الهدوء المؤقت لتأمين المملكة ، ثم عندما تولَّى حفيده مونكو خان الحُكم ، قرَّر استكمال الهجمات التي بدأها جده جنكيزخان لتحقيق طموحه في بناء مملكة عظيمة ، فأعدَّ العدَّة لِذلك، واختار لِقيادة الفُتوحات عدد من إخوته و جعل كُلٌ منهم قائدًا على الجُيوش المُتوجهة في كُل صوب ، ووقع اختيار مونكو خان على أخيه هولاكو لِقيادة الجُيوش المُكلَّفة بفتح غرب فارس ومصروالشَّام والأناضول وأرمينية.

٣- بالعودة إلى أحوال بغداد ، نجد أن ابن كثير قد وصف آخر خلفاءها قائلاً (كان منغمساً في الشهوات و ملتصقاً بالامبالاة) أما الشهوات فقد كشفها هولاكو بنفسه عندما دخل بغداد يوم الجمعة ١٢٥٨/٢/١٦ وأمر الخليفة بأن يدله على كنوزه فأرشده وهو يرتجف إلى أحواض للتخزين مبنية تحت ساحة القصر و مليئة بقطع الذهب الأحمر، فلما أخرجت و كدست كانت مثل جبال هماذان ، كما في المرجع ، و كان الخليفة قد أخذ بنصيحة الوزيرابن العلقمي فخفض أعداد الجند من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل إلى ١٠,٠٠٠فقط ، و ترك الجنود يتسولون في الطرقات وعلى أبواب المساجد بعد أن أسقطهم الوزير حتى من ديوان الجند ، و عندما شاهد هولاكو هذا الجبل العظيم من الذهب قال للخليفة العباسي (لماذا احتفظت بكل هذا تحت قصرك ولم تبذله لبناء جيش قوي تحمي به بلدك ، بل و تعبر بجيش عظيم إلى نهر جيحون فتمنعنا من عبوره إليك ؟) ، وكان هولاكو متردداً في قتله الخليفة فهون عليه ابن العلقمي والنصير الطوسي ذلك الفعل الذي قضى على الخليفة ٣٧ من بني العباس الذين دامت دولتهم ٥٢٥ سنة و انتهت و تدمرت معها بغداد و أهلها بصورة بشعة لم يسمع بمثلها من قبل .

لوحة تاريخية (الخليفة العباسي يفتح الخزائن لهولاكو)

٤-ليست الجوانب العسكرية فقط هي التي أهملتها الخلافة العباسية بل كانت الإدارة العامة للبلاد في غاية السوء في عهد المستعصم ، فقد أصاب بغداد في أواخر صيف سنة ١٢٥٦ سيل ضخم أغرقها وأزال بيوتًا ومتاجر كثيرة برُمّتها ، وفشا السلب والنهب ، وخربت نصف أرض العراق، وأُطلق الناس على هذا السيل اسم " الغرق المُستعصمي" بينما جرت العادة أن تنسب للملوك العظماء أسماء إنجازت و مشاريع ضخمة ، وقد تعددت مراكز القوى السياسية آنذاك في عاصمة الخِلافة ، وتعاظمت خلافاتها لأسباب مذهبيَّة ، و اشتد التنافس على المنافع والمصالح بين أربابُ السُلطة ومن بيدهم إدارةُ الشُؤون العامَّة فكانوا مُتباغضين و متشاكسين على الدوام ، كُلّ منهم يُحيكُ المُؤامرات ضدَّ الآخر، ويُسفِّه رأيهُ أمام الخليفة الذي وقف عاجزًا عن وضع حدٍ لِهذه المشاكل ، فترتب على ذلك أن اشتدَّت الخِلافات بين وزيريّ المُستعصم مُجاهدُ الدين السُنيّ و مُؤيّدُ الدين بن العُلقُمي الشيعيّ ، ممَّا كان لها أثره السيء في اضطراب الأُمور وتقويض سُلطة الخِلافة ، وكان سُكَّانُ بغداد من المُسلمين والنصارى واليهود في تناحُرٍ مُستمر وخِلافٍ

مُستحكم ، وكان أشد تلك الخلافات هي التي بين المسلمين أنفسهم بين أهلُ السُنَّة والجماعة من جهة و الشيعة الاثنا عشريَّة من جهة أخرى ، و بالتبعية كانوا يختلفون في المسائل السياسيَّة بغير اكتراث بالخطر الداهم لهم مجتمعين ، وبعد حادثة السيل والغرق المُستعصمي، تزايدت الخلافات بين أبرز شخصيات بغداد مُجاهدُ الدين وابن العُلقُمي ، فانتشرت الاضطرابات بين السُنَّة والشيعة نتيجة لخِلافهما ، وامتدَّت الفتنة حتَّى شملت أرض الجزيرة الفُراتيَّة ، وتحوَّل الأمر إلى ما يُشبه حربًا أهليَّةً مُصغَّرة بينما الخطر الداهم يقترب ليسحق الجميع تحت سنابك الخيول المغولية ، في المقابل ، كانت لا مبالاة الخليفة بلا حدود ، فقد كان يقول: «أَنَا بَغدَادُ تَكفِيني، وَلَن يَستَكثِرُونَهَا لِي ، إِذَا نَزَلتُ لَهُمُ عَن بَاقِيَ البِلَادِ، وَلَن يَهجُمُوعَلَيَّ وَأَنَا هنا في بَيتِي وَدَارُمَقَامِي» .

هولاكو خان - قائد الجُيوش المغوليَّة التي اجتاحت بغداد

٥- أشاعت أخبار سقوط بغداد وتقدم المغول الذعر بين حكام بقية الإمارات فلجأوا الى مداراة المغول بالمال والهدايا في مُحاولةٍ لِتجنُّب الدُخول في معركةٍ معهم ، ولم يكن الخليفة العباسي هو الوحيد في التعامل مع المغول بالضعف و الهوان ، فقد شاركه في ذلك حاكم إمارة الموصل الذي دخل في طاعة المغول، و حاكم إمارة دمشق الذي راسل المغول سرًا ، وكان يصلهم بالهدايا مع ابنه العزيز ووزيره لِيتحالفوا معه ضدَّ مصر، و كذلك حاكم إمارة الكرك الذي كان أيضًا على تواصلٍ مع المغول ، و لم يحقق كل ذلك لهم الأمن فقد أعمل المغول السيف في رقاب البشر جميع تلك الإمارات و تسلطوا على الناس بالسلب و النهب كيفما شاؤوا .

٦- وصف ابن كثير خيانة ابن العُلقُمي مُحملًا إيَّاه ذنب سُقوط بغداد ودماء أهلها فقال «وَكَانَ الْوَزِيرُ ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ قَبْلَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ يَجْتَهِدُ فِي صَرْفِ الْجُيُوشِ وَإِسْقَاطِ أَسْهُمِهِمْ مِنَ الدِّيوَانِ، فَكَانَتِ الْعَسَاكِرُ فِي آخِرِ أَيَّامِ الْمُسْتَنْصِرِ قَرِيبًا مِنْ مِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، مِنْهُمْ مَنَ الْأُمَرَاءِ مَنْ هُوَ كَالْمُلُوكِ الْأَكَابِرِ، فَلَمْ يَزَلْ يَجْتَهِدُ فِي تَقْلِيلِهِمْ إِلَى أَنْ لَمْ يَبْقَ إِلَّا عَشَرَةُ آلَافٍ، ثُمَّ كَاتَبَ التَّتَارَ، وَأَطْمَعَهُمْ فِي أَخْذِ الْبِلَادِ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَجَلَّى لَهُمْ حَقِيقَةَ الْحَالِ، وَكَشَفَ لَهُمْ ضَعْفَ الرِّجَالِ" وقد وافق الإمام جلال الدين السيوطي ابن كثير في تخوينه لِابن العُلقُمي، وكذلك فعل قطب الدين البعلبكي، والإمام الذهبي وتاجُ الدين السبكي. ويقول الأُستاذ حسن السوداني، وهو أحد المُؤرخين المُعاصرين، أنَّ ابن العُلقُمي ونصيرُ الدين الطوسي حببا إلى هولاكو فكرة تدمير بغداد بِدافع الحقد لا أكثر، وأنَّ هذا الحقد أعماهُما لِدرجة عدم دفاعهما عن العتبة الكاظميَّة مقام الإمام موسى الكاظم ، عندما خرَّبها هولاكو وأحرقها، ويُضيف السوداني (أنَّ هولاكو كان قد استشار مُنجمًا فلكيًّا مُسلمًا يغارُ على

الإسلام وأهله قبل أن يبدأ غزوته ، فقال لهُ ذلك المُنجِّم أنَّ كُل من تجاسر على التصدي لِلخلافة والزحف بالجيش إلى بغداد لم يبق له العرش ولا الحياة، وإذا أبى الإلخان – هولاكو - أن يستمع إلى نُصحه وتمسَّك بِرأيه فسينتج عنه ست مهالك: تموت الخيل، ويمرضُ الجُند، ولن تطلع الشمس ولم ينزل المطر ثم يموت الخاقان الأعظم) .

فاستدعى هولاكو نصير الدين الطوسي الذي نفا ما قاله المُنجِّم وطمأن هولاكو بأنَّهُ لا توجد موانع شرعيَّة تحول دون إقدامه على الغزو، ولم يقف الطوسي عند هذا الحد بل أصدر فتوى يُؤيِّدُ فيها وجهة نظره بالأدلَّة العقليَّة والنقليَّة وأعطى أمثلة على أن كثيرًا من أصحاب الرسول قُتلوا ولم تقع الكارثة. بناءً على هذا غزا هولاكو بغداد بفتوى الطوسي وبِمعلومات ابن العُلقُمي ، ويقول أيضًا أنَّ بعض المُستشارين أشاروا على المُستعصم بِأن ينزل بالسفينة إلى البصرة و يُقيمُ في إحدى جُزر الخليج حتى تسنح الفُرصة ويأتيه نصرُ الله لكن وزيره ابن العُلقُمي خدعه بأنَّ الأُمور ستسير على ما يُرام لو التقى بهولاكو، فخرج إليه وكان ما كان .

بدرُ الدين لؤلؤ - حاكم الموصل خضع للمغول بإرادتهِ الحُرَّة

فرسان مغول

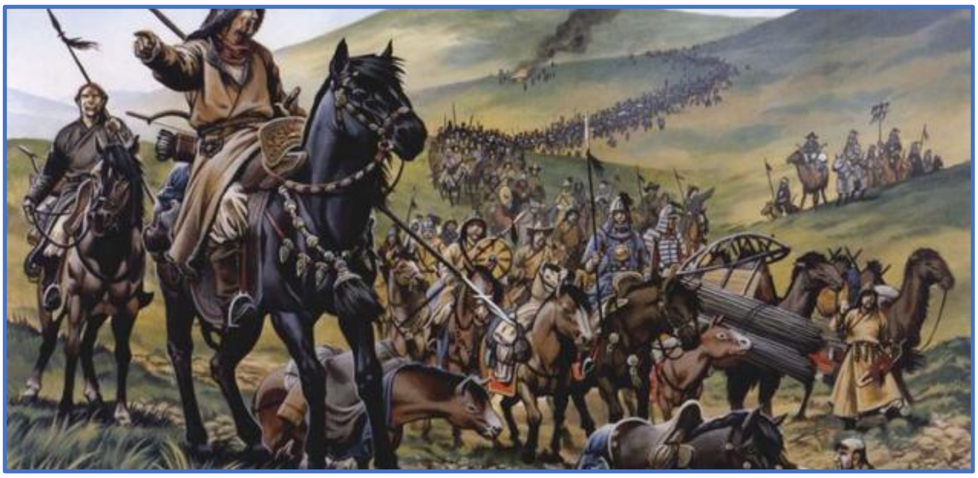

جيش المغول يتجه نحو مصر

ثانيًا : مصر تتحدى المغول ١٢٦٠ م

بعد أن استتبت الأمور لهولاكو في العراق و الشام ، وجه بصره نحو مصر فأطبق على غزة ، ثم أرسل تهديدًا قويًا إلى مصر ، حَمَلَهُ إليها أربعة من جنوده ، وكان الحاكم فيها يومئذ هو قطز، جاء فيه :-

(من ملك الملوك شرقاً وغرباً الخاقان الأعظم، ، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس السلاجقة الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم و يتنعمون بأنعامه ، سلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرفق لمن شكى، قد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب، فأي أرض تأويكم وأي طريق تنجيكم وأي بلاد تحميكم، فما من سيوفنا خلاص ، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عن الكلام، وخنتم العهود والأيمان وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان ، وقد أعذرمن أنذر).

كانت الرسالة إعلاناً صريحًا بالحرب أو تسليم مصر للتتار، على إثر ذلك عقد قطز مجلساً ضمّ كبار الأمراء والقادة والوزراء وبدؤوا مناقشة فحوى الرسالة، كان قطز مصمماً على خوض الحرب ورافضاً لمبدأ التسليم، فلما رأى من بعض الحضور التردد قال « أنا ألقى التتار ولو لم أملك إلا نفسي »، ثم قال للجميع « يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للدفاع عن بلادكم كارهون، و لكنني متوجه لقتالهم ، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك فليرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه ،

وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين » ثم صرخ فيهم قائلاً : « من للإسلام إن لم نكن نحن ؟! » .

بعد هذه الكلمات أيّد الأمراء المماليك قرار قطز بالمواجهة ، ثم استشار مساعديه في قطع أعناق الرسل الأربعة الذين أرسلهم هولاكو لقطع التردد و الخوف من النفوس ، فأيدوه و علقت رؤوسهم على باب زويلة في القاهرة ، فوصلت الرسالة للناس كافة " إما النصر أو الشهادة " ، ونتج عن ذلك سريان روح جديدة في نفوس الناس في جميع البلاد المصرية.

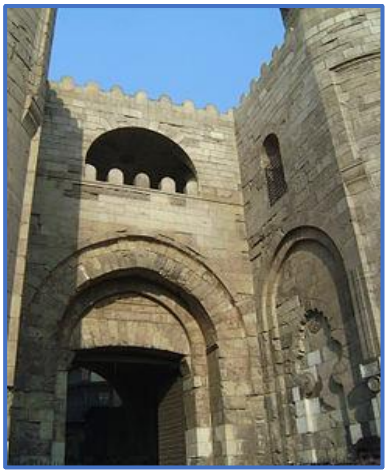

باب زويلة

قطز يستنفر الامراء و الشعب لمواجهة المغول

قطز من البداية إلى النهاية في (٩) وقفات

(١) قرر قطز الخروج من مصر لملاقاة المغول في بلاد الشام ، وعدم انتظارهم في مصر، وكان أول ما قام به لبناء الجيش هو إصداره عفوًا عامًا و شاملًا عن جيش المماليك البحرية الذين فرّوا إلى الشام بعد مقتل زعيمهم فارس الدين أقطاي نتيجة خلافات سابقة على حكم قطز، وكانت هذه الخطوة هي أبرز قرار سياسي اتخذه قطز، فقواته لا تكفي لحرب التتار، وكانت المماليك البحرية قوة عظيمة وقوية و ذات خبرة واسعة في الحروب ،لذا فقد حققت إضافة قوة المماليك البحرية إلى الجيش المصري بناء جيش قوي قادرًا على محاربة التتار، وكان من نتائج هذه الخطوة عودة القائد ركن الدين بيبرس إلى مصر، فاستقبله قطز استقبالًا لائقًا ، وعظم من شأنه وأنزله دار الوزارة ، وأقطعه قليوب وماحولها من القرى، وجعله في مقدمة الجيوش في معركة عين جالوت ، هذا التعاون بين الجميع ، على ما بينهم من خلاف ، لم يحدث في العراق ، كما مر معنا .

(٢) احتاج تجهيز الجيش إلى موارد مالية ضخمة للعتاد و العدة والتموين اللازم له ، ولبناء و إصلاح الجسور والقلاع والحصون ، وإعداد الأسلحة اللازمة للحرب ، ولم تكن لدى الدولة آنذاك ما يكفي من الأموال ، فدعا قطز مجلسه الاستشاري بحضور سلطان العلماء الشيخ العز بن عبد السلام ، اقترح قطز أن تفرض ضرائب لدعم الجيش، و هو أمر يستلزم إصدار فتوى شرعية، لأن المسلمين لا يدفعون إلا الزكاة، عندئذ قال

العزبن عبد السلام «إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم كله قتالهم ، وجازلكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وأن تبيعوا مالكم من الحوائص - وهي حزام الرجل وحزام الدابة - المذَهَّبة والآلات النفيسة، و لا يبقى لكل منكم إلا مركوبه وسلاحه حتى يتساوى الأمراء والعامة ، وأما أخذ الأموال من العامة، مع بقايا في أيديكم من الأموال والآلات الفاخرة فلا» ، فلما انتشرت أخبار تلك الفتوى شحذت همم الشعب بعد أن علموا أنه لن يتم فرض ضرائب إلا بعد أن يتساوى الوزراء والأمراء مع الجميع في الممتلكات ، وأن تجهيز الجيش سيتم أولاً بأموال الأمراء والوزراء ، فإن لم تكفِ جاز فرض الضرائب على الشعب بالقدر الذي يكفي لتجهيز الجيش، و قبِل سيف الدين قطز فتوى العز بن عبد السلام ، بل وبدأ بنفسه وباع كل ما يملك وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع وامتثلوا أمره ، فقد أحضر الأمراء كافة ما يملكون من مال وحلي نسائهم وأقسم كل واحد منهم أنه لا يملك شيئاً في الباطن، ولما جمعت تلك الأموال ضربت سكاً ونقداً وأنفقت في تجهيز الجيش ، ولم تكفي هذه الأموال في تغطية نفقة الجيش، فقرر قطز إقرار ضريبة على كل فرد من أهل مصر والقاهرة من كبير وصغير ديناراً واحداً، وأَخذ من أجرة الأملاك شهراً واحداً، وأَخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً ، وأَخذ من التركات الأهلية ثلث المال - الأثلاث التي يرصدها الناس لفعل الخير من ميراثهم - وأَخذ من الغيطان والسواقي أجرة شهر واحد، حتى تحصل لديه ما أعانه على بناء الجيش انطلقت جحافله نحو أرض المعركة في فلسطين (عين جالوت) .

(٣) معاهدة عكا :

بعد أن أقرَّ المجلس العسكري خطة سيف الدين قطز في السير إلى فلسطين وجدوا أن الإمارات الصليبية على ساحل البحر ستكون مصدر خطر عليهم وهي إمارات عكا و حيفا وصور وصيدا واللاذقية وأنطاكية، وكانت أقوى هذه الإمارات الصليبية هي إمارة عكا، وجد قطز أن أفضل حل هو الإسراع بعقد معاهدة مع الصليبيين في عكا قبل أن يتحالف التتار معهم، و أرسل سفارة منه إلى عكا ، وقبِل الطرفان فكرة الهدنة وأصر الوفد المسلم على أن تكون هذه الهدنة هدنة مؤقتة تنتهي بانتهاء حرب التتار كون الاحتلال الصليبي لفلسطين لا يمكن إقراره ، ومما اتفق عليه الطرفان في الهدنة أن أي خيانة تحصل من قبل الصليبيين فسيترك المسلمين قتال التتار ويتوجهون إلى عكا لتحريرها، وأنه في حال انتصار المسلمين في قتال التتار فسيبيع المسلمون خيول التتار من أهل عكا بأسعار زهيدة، في حين تعهد الصليبيين في عكا بأن يسهموا في إمداد جيش المسلمين بالمؤن والطعام أثناء تواجده في فلسطين.

*ملاحظة * كان خطر المغول يتهدد أوربا أيضًا ، الأمر الذي جعل الصليبيين يقبلون بتلك المعاهدة .

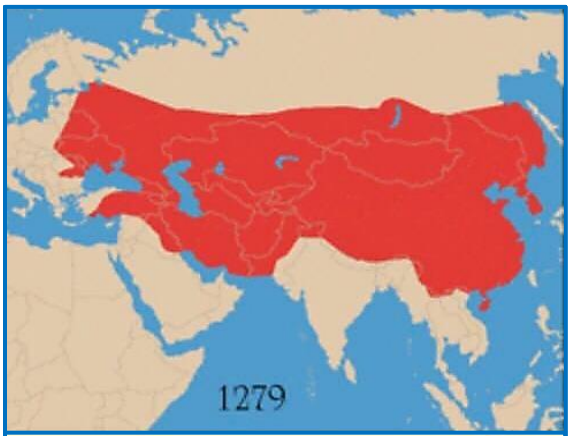

التمدد الجغرافي للمغول

(٤) معركة غزة :

سار قطز بجيشه عبر الطريق الساحل الشمالي لسيناء في أوائل شعبان ٦٥٨ هـ/ يوليو ١٢٦٠م، و أرسل قبله فرقة كبيرة نسبياً على رأسها بيبرس، تقدمت كثيراً عن بقية الجيش ، وتظهر نفسها في تحركاتها، بينما يتخفي بقية الجيش في تحركاته، فإذا كان هناك جواسيس للتتار اعتقدوا أن مقدمة الجيش هي كل الجيش، فيكون استعدادهم على هذا الأساس، ثم يظهر بعد ذلك قطز على رأس الجيش الأساسي، وقد فاجأ التتار الذين لم يستعدوا له حيث كان جيشهم الرئيسي متواجدًا في سهل البقاع - لبنان - استطاع جيش هزيمة الحامية التترية في غزة، وكان لهذا الانتصار المبكر أثره الكبير في التمهيد للقاء الكبير، و كان من آثار الانتصار أن أشار بعض أمراء قطز عليه بالهجوم على عكا و إنهاء وجود الصليبيين فيها فقال لهم «نحن لا نخون العهود» .

سهل عين جالوت حالياً

موقع سهل عين جالوت

(٥) شعار معركة عين جالوت " واا .. إسلاماه " :-

وفي يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ / ٣ سبتمبر ١٢٦٠م، رتب قطز جيشه واستعد للمعركة، وما إن أشرقت الشمس حتى أتى جيش التتار إلى سهل عين جالوت من الشمال ، كان الجيش الرئيسي يختبىء خلف التلال، أما مقدمة الجيش بقيادة ركن الدين بيبرس فقد كانت لا تخفي نفسها، وكان الهدف من هذه الخطة أن يعتقد جواسيس التتار أن هذه المقدمة هي كل الجيش، وبدأت مقدمة الجيش في النزول من أحد التلال إلى سهل عين جالوت، وبعد أن نزلت مقدمة جيش المسلمين بقيادة ركن الدين بيبرس بدأت فرقة عسكرية مملوكية في الظهور على أرض المعركة وانطلقت بقوة تدق طبولها وتنفخ أبواقها وتضرب صنوجها النحاسية، وكانت هناك ضربات معينة للميمنة وضربات معينة للميسرة وضربات معينة للقلب، وكانت هناك ضربات محددة للتقدم والتأخر، وضربات خاصة لكل خطة عسكرية، وبذلك استطاع قطز أن يقود المعركة عن بعد ، ووقف ركن الدين بيبرس بقواته على المدخل الشمالي لسهل عين جالوت، بينما ترك السهل بكامله خالياً من خلفه .

قرر كتبغا ، قائد المغول ، أن يدخل بكامل جيشه وقواته لقتال جيش بيبرس ، وهذا ما خطط له قطز ، فأعطى كتبغا إشارة البدء لقواته بالهجوم ظنا منه أنّ هذه هي كل قوّات الجيش، فتقدمت أعداد هائلة من فرسان التتار باتجاه مقدمة الجيش، وقف ركن الدين بيبرس وجنوده في أماكنهم حتى اقتربت منهم جموع التتار، عندها أعطى بيبرس لجنوده إشارة بدء القتال ، فانطلقوا باتجاه جيش التتار، وارتفعت سحب الغبار من المعركة وتعالت أصوات دقات الطبول، واحتدم القتال للحظات، وثبتت مقدمة الجيش في

القتال وكانت مكونة من خيرة فرسان المماليك، قرر كتبغا إنزال كامل قواته إلى السهل الفسيح لقتال مقدمة الجيش بعد أن رأى منهم الثبات في القتال ، دون أن يترك أي قوات للاحتياط خلف جيش التتار، استمر القتال سجالاً على الرغم من الفجوة العددية الكبيرة بين القوتين، ثم دقت الطبول دقات معينة وهي عبارة عن أوامر من قطز إلى بيبرس بسحب التتار إلى داخل سهل عين جالوت، بدأ بيبرس على الفور في تنفيذ الأوامر، فأظهروا للتتار الانهزام وتراجع جيش بيبرس بظهره وهو يقاتل ، عندما رأى كتبغا تراجع المسلمين أمر جنده بتتبعهم والقضاء عليهم ، و اكتمل دخول جيش التتار إلى سهل عين جالوت للضغط على الجنود الذين انسحبوا، فلما دخل جيش التتار بأكمله ، انسحب ركن الدين بيبرس بجنوده إلى الناحية الجنوبية من السهل ، ولم يترك كتبغا قوات احتياطية خارج السهل لتؤمن طريق العودة في حال الخسارة ولتمنع التفاف جيش المسلمين حول التتار.

سحب جيش التتار إلى داخل سهل عين جالوت

في هذا التوقيت الدقيق نزل جيش المسلمين الرئيسي بقيادة قطز من خلف التلال إلى ساحة المعركة ، وأسرعت فرقة قوية من المماليك لغلق المدخل الشمالي لسهل عين جالوت، وبذلك أحاطت قوات جيش المسلمين بالتتار من كل جانب، وبدأ صراع لا مجال فيه للهرب أو المناورة، وبدأ التتار يقاتلون بكل شجاعة، وظهر تفوق ميمنة جيش التتار، فتراجع المسلمون تحت ضغط بسالة التتار، الذين اخترقوا ميسرة المسلمين، وبدأ تساقط الشهداء منهم ، كان قطز في هذه الأثناء في مكانٍ عالٍ خلف الصفوف يراقب الوضع، ويوجه فرق الجيش لسد الثغرات، ولما رأى معاناة ميسرة الجيش دفع بقوة احتياطية لمساندتها، ولكن هذه القوة لم تغير في الأمر شيئاً أمام بسالة وقوة ميمنة التتار، فدفع بقوة احتياطية أخرى .

ولكن الموقف تأزم بشكلٍ أكبر، عندها قرر قطز أن ينزل بنفسه لأرض المعركة ، فرمى خوذته وأخذ يصرخ « واإسلاماه... واإسلاماه »، واحتدم القتال في سهل عين جالوت، و صوَّب أحد التتار سهمه نحو قطز، فأخطأه وأصاب فرسه فقتل الفرس واستمر القتال وقطز واقفًا على قدميه في أرض المعركة يقاتل ، وبدأت الكفة تميل لصالح المسلمين، وارتد الضغط على التتار، وتقدم أمير شجاع من أمراء المماليك واسمه جمال الدين آقوش الشمسي واخترق صفوف التتار حتى وصل إلى كتبغا، ودار بينهما قتال فتمكن آقوش من كتبغا وقتله .

وبقتله انهارت العزيمة عند جيش التتار، وأصبحوا يقاتلون ليفتحوا لأنفسهم طريقاً في المدخل الشمالي لسهل عين جالوت ليتمكنوا من الهرب، واستطاعوا فتح ثغرة في المدخل الشمالي، وخرجت أعداد كبيرة منهم باتجاه الشمال، وخرج المسلمون في طلبهم، حتى وصل التتار الفارون إلى مدينة بيسان، وعندما وصل إليهم المسلمون، لم يجد التتار أمامهم إلا أن يعيدوا تنظيم صفوفهم ويصطفوا من جديد، ودارت بين الطرفين معركة كبيرة قرب بيسان، وقاتل التتار فيها قتالاً شديداً، وبدؤا يضغطون على المسلمين، ودارت الدائرة لهم، عندها كرر قطز ما فعله في عين جالوت وأخذ يصيح بالجند «وإسلاماه... وإسلاماه... وإسلاماه» ثلاثاً، وأقبل الجند على القتال وارتفعت راية الإسلام وهوت راية التتار، وبدأ جنود التتار في التساقط ، وكانت نتيجة المعركة أن أُبيد جيش التتار بأكمله ، ولم يبقى على قيد الحياة من جيش التتار أحد.

(٦) <u>تحرير مدن الشام من التتار:-</u>

١. بعد الانتصار الذي تحقق في عين جالوت، وانكسار جيش التتار وهزيمته الساحقة فيها ، أراد سيف الدين قطز أن يستثمر انتصاره بتحرير دمشق من التتار بعد أن تبدد جيشهم بأكمله في

المعركة، فلم يتوقف يومًا واحدًا بل سابق الأخبار إلى دمشق وفاجأ الحامية المغولية فانهارت وولت الأدبار في ٢٧ رمضان .

٢. في أول أيام عيد الفطر أرسل قطز قائده بيبرس بمقدمة جيشه لتتبع الفارّين من التتار، وتطهير المدن الشامية من الحاميات التتارية الواحدة تلو الأخرى ، فوصل بيبرس إلى حمص، واقتحم معسكرات الحامية التتارية وقضى عليهم وهرب من هرب منهم ، وأُطلق سراح المسلمين الأسرى الذين كانوا في قبضة التتار، ثم انطلقوا خلف الحاميات التتارية الهاربة، فقتلوا أكثرهم وأسروا الباقين ولم يفلت منهم إلا الشريد، ثم اتجه بيبرس بمقدمة جيشه إلى حلب ، ففر منها التتار، واستطاع المسلمون تطهير بلاد الشام بأكملها من التتار في بضعة أسابيع.

٣. ما إن حرر قطز مدن الشام حتى خُطِبَ له على المنابر في كل المدن المصرية الشامية والفلسطينية، و أعلن سيف الدين قطز توحيد مصر و الشام تحت دولة واحدة بزعامته، وكانت هذه الوحدة هي الوحدة الأولى بين الإقليمين منذ عشر سنوات، وذلك منذ وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وبدأ قطز في توزيع الولايات الإسلامية على الأمراء المسلمين، وأرجع بعض الأمراء الأيوبيين إلى مناصبهم، وذلك ليضمن عدم حدوث أي فتنة في بلاد ومدن الشام، فأعطى قطز إمارة حمص للأشرف الأيوبي، وأعطى إمارة حلب لعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ، وأعطى إمارة حماة للأمير المنصور، وعين الأمير المملوكي جمال الدين آقوش الشمسي (قاتل القائد المغولي كتبغا) على الساحل الفلسطيني و غزة ، أما دمشق

فقد عين عليها علم الدين سنجر الحلبي، وفي يوم السادس والعشرين من شهر شوال عام ٦٥٨ ه الموافق الرابع من شهر أكتوبرعام ١٢٦٠م توجه سيف الدين قطزإلى مصر.

(٧) مقتل قطز .

كانت النهاية المؤسفة للقائد قطز بعد معركة عين جالوت بخمسين يومًا فقط، حيث تم طعنه وهو في طريق عودته إلى القاهرة في منطقة تسمى الصالحية ، و أكثر المؤرخين يقول بأن الذي قتله هو القائد ركن الدين بيبرس ، ويقول جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء أن قطزوعد بيبرس بإعطائه إمارة حلب إلا أنه وزع مدن الشام على آخرين من أهل تلك البلاد خشية تفتت الدولة بعد رحيله فتأثربيبرس بذلك ، وأضمرالشرله واتفق وجماعة من الأمراء على قتل المظفرفقتلوه في الطريق، وقد رأينا كيف أعلن قطزعدم رغبته في الملك بعد أن يخلص الناس من التتار، ما يفيد بأنه على نية التنازل عن السلطة ، إلا أنها العجلة ، و غواية الشيطان ، و أعوان الشر، وبعد مقتل قطزبقي جسده ملقًى على الأرض مضرجًا بدمائه لفترة ، إلى أن دفنه بعض غلمانه .

(٨) من هو قطز ؟؟

- هو الملك المظفرسيف الدين قُطُزمحمود بن ممدود بن خوارزم شاه ، تولى الملك سنة ١٢٥٩ وتوفي سنة ١٢٦٠، ويعدّ قُطُزبطل معركة عين جالوت التي انهزم فيها المغول ، وهوأيضا مُحرر بيت المقدس من يدهم ، كما يعد أحد أبرز ملوك مصرعلى الرغم من أن فترة حكمه

كانت أقل من عام واحد ، و مع ذلك فقد نجح في تعبئة وتجميع الجيش المصري، و هزم المغول و ذلك لأول مرة في تاريخهم ثم لاحق فلولهم حتى أخرجهم من الشام بأكمله .

- ترجع بداية أمره إلى سقوط الدولة الخوارزمية ، وكان والد قطز أحد أمراء تلك الدولة و استشهد أثناء القتال مع التتار المغول ، و كان قطز صبيًا عندما اختطفه المغول و باعوه و غيره من الصبيان في دمشق و غير المغول اسمه من محمود إلى قطز و يعني في لغتهم الكلب الشرس ، و اشتراه أحد أثرياء دمشق و أحسن تربيته فتعلم اللغة العربية وأصولها، وحفظ القران الكريم ودرس الحديث، وبعد موت الثري أصبح قطز مملوكًا لابن ذلك الثري، ولكنه لم يجد من هذا الابن حسن تعامل ، يروي شمس الدين الجزري في تاريخه عن سيف الدين قطز (لما كان في رق موسى بن غانم المقدسي بدمشق، ضربه سيده وسبه بأبيه وجده ، فبكى ولم يأكل شيئًا سائر يومه ، فأمر سيده الفراش أن يطعمه ، فلما جاءه بالطعام، قال له: (كل هذا البكاء و الحرقة من لطمة ؟) ، فقال قطز: (إنما بكائي من سبه لأبي وجدي وهما خير منه) . فقال الفراش: (من أبوك، إنه رجل كافر؟) فقال قطز: (و الله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم ، أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه و نحن من أولاد الملوك) ، فسكتُ الفراش و أخذ يترضاه.

- ثم بيع قطز لثري آخر من أثرياء الشام ، وكانت تلك نقلة كبيرة في حياته لاتصال المالك الجديد بالحياة السياسية والعمل في الجهاد ضد الصليبيين، و كان والد هذا المالك واحدا من أكبر معاوني العالم الشيخ العز بن عبد السلام ، قبل انتقاله من الشام الى مصر، فتربى قطز تربيه جديدة ، وعندما تزايدت تهديدات الصليبيين لاهل الشام

بعد أن أطمعهم فيها صاحب دمشق الملك الصالح إسماعيل ، نهض الملك الصالح نجم الدين أيوب - في مصر- للدفاع عن المسلمين ، فقرر قطز أن يلتحق بجيشه ضمن المدافعين عن دمشق مع الجيش المصري .

- ثم طلب قطز من سيده أن يبيعه إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر، ووافق سيده على بيعه ، فانتقل الى مصر و التحق بالأمير المملوكي عز الدين أيبك، و تربى قطز مثل باقي المماليك حيث يتم الحاقهم بمدرسة المماليك، ويتم تعليمهم اللغة العربية قراءة وكتابة ، و حفظ القران الكريم ومبادئ الفقة الإسلامي، ثم فنون القتال من الرمي بالسهام والقتال بالسيوف، وركوب الخيل ووضع الخطط الحربية والتصرف في أمور الدولة، وكان قطز قد نشأ قبل اختطافه في بيت ملك داخل قصر خاله السلطان جلال الدين الخوارزمي حيث تولى تربيته بعد وفاة أبيه، وحصل على تربية إسلامية و تدريب عسكري منذ صباه الباكر، فأدّى كل ذلك تفوق قطز على أقرانه من مماليك مصر الذين اشتراهم الملك الصالح ، و نشأ قطز على كراهية المغول لما فعلوه بأهله في خوارزم ، بل كان قد سمع وشاهد المعارك التي قادها خاله وأبوه في تلك البلاد قبل ان يغادرها مرغما .

- وصف المؤرخون شخصية المظفر قطز، فقالوا أنّه كان بطلًا شجاعًا مقدامًا حازمًا، حسن التدبير، عافًّا عن المحارم، مترفعًا عن الصغائر، مواظبًا على الصلاة والصيام وتلاوة الأذكار، تزوج من بني قومه، و خلّف ابنتان ، كانت له اليد البيضاء في قتال المغول، قال أبو المحاسن ابن تغري «كان بطلاً شجاعًا، مِقدامًا حازمًا، حَسَنَ التدبير، يرجِع إلى دينٍ وإسلام وخيرٍ»، وقال الإمام الذهبي «السلطان الشهيد.. كان فارسًا شجاعًا، سائسًا ، دينًا، محببا إلى الرعية، هزم التتار وطهر

الشام منهم يوم عين جالوت، ويسلم له إن شاء الله جهاده، وكان شابا أشقر، وافر اللحية، تام الشكل، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوض الله شبابه بالجنة ورضي عنه»، وقال ابن كثير «وكان شجاعًا بطلًا، كثير الخير، ناصحًا للإسلام وأهله، وكان الناس يحبونه ويدعون له كثيرًا »،قال ابن العماد الحنبلي «كان بطلًا شجاعًا حازمًا، كسر التتار كسرة جُبر بها الإسلام، واستعاد منهم الشام، فجزاه الله عن الإسلام خير الجزاء.

ساعدت تربية قطز على اتخاذه قرار خوض الحرب مع المغول بغير تردد

(٩) من هو العزبن عبد السلام ؟

كان العزبن عبد السلام المتوفى في ١٢٦٢م ، هو" قاضي القضاة " في الشام ، برع في الفقه والأصول والعربية ، وجمع بين فنون العلم من الحديث واختلاف أقوال الناس ومآخذهم ، وبلغ رتبه الاجتهاد ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وكان الذي يحكم كلاً من مصر والشام شقيقان وبينهما عداوة شديدة دفعت حاكم الشام - اسماعيل - إلى طلب العون من الصليبيين ليساعدوه ضد أخيه حاكم مصر - أيوب - و في المقابل أعطاهم اسماعيل

قلعة صفد ، وما جاورها، وقلعة الشقيف وما حولها، وميناء صيدا ، وسمح لهم بدخول دمشق لشراء السلاح ليقاتلوا به المسلمين ، وليتزودوا من أسواقها الطعام و جميع ما يحتاجون ، فاستنكر العزّبن عبد السلام ذلك وصعد المنبروخطب في الناس في جامع بني أمية الكبير بدمشق وكان خطيبًا بارعًا يملك أفئدة السامعين بصوته المؤثر، وكلامه المتدفق ، وأفتى بحُرمة بيع السلاح للفرنجة ، وقال في آخر خطبته "اللهم أبرم أمرًا رشداً لهذه الأمة، يعزّفيه أهل طاعتك ، ويذلّ فيه أهل معصيتك" ، والناس يضجون بالتأمين والدعاء ، ثم نزل من المنبردون الدّعاء للحاكم الملك إسماعيل كعادة خطباء الجمعة ، فاعتبِر الملك ذلك عصياناً وشقّاً لعصا طاعته و غضب على العزّ وسجنه فلما تأثّر الناس ، واضطرب أمرهم ، أخرجه الملك من سجنه وأمر بإبعاده عن الخطابة في الجوامع فترك العزّ الشام وارتحل إلى جهة بيت المقدس، وصادف أن خرج الملك إسماعيل إلى تلك الجهة أيضاً، والتقى بأمراء الأعداء من بيت المقدس، فأرسل رجلاً من بطانته، وقال له " اذهب إلى العز بن عبد السلام، ولاطفه، ولاينه بالكلام الحسن، واطلب منه أن يأتي إلي ، ويعتذر مني، ويعود إلى ما كان عليه" ، فذهب الرجل إلى العزبن عبد السلام وقال له: "ليس بينك وبين أن تعود إلى الخطابة وأعمالك وزيادة على ما كنت عليه إلا أن تأتي، وتُقبِّل يد السلطان لا غير". فضحك العزبن عبد السلام، وقال: "يا مسكين، والله ما أرضى أن يقبل الملك يدي فضلاً عن أن أُقبِّل يده ، يا قوم أنا في وادٍ، وأنتم في وادٍ آخر، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به." ، فلما علم الملك بذلك أمر بسجن العزبن عبد السلام في خيمة قريبة من معسكره لعله يندم ويعتذرعما بدرمنه ، و التقى الملك مع رؤساء الفرنج في خيمته " أتسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن هناك ؟ " قالوا : نعم ، قال : هذا أكبرعالمٍ بين المسلمين اليوم، وقد حبسته لاعتراضه

على تسليمي حصون المسلمين لكم ، وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن بقية مناصبه فهو لأجلكم محبوس".

فَدُهِشَ الفرنج لما سمعوه من الملك عن رفض الشيخ مغريات التي بذلها ليعود العزبن عبد السلام عن رأيه ،وقالوا:" لو أنَّ هذا الشيخ كان قسيساً عندنا لغسلنا رجليه وشربنا ماءها ".

العز بن عبد السلام

بعد أن أفرج الملك عنه انتقل العز من الشام الى مصر فطلب منه الملك أيوب أن يتولى القضاء فيها ، و لبث على ذلك زمنا فلما قرع المغول أبوابها كان حاكمها يومئذ قطز.

وعندما قام " سلطان العلماء" العزبن عبد السلام بمهام القضاء اكتشف أن الأمراء المماليك الذين يعتمد عليهم الملك الصالح نجم الدين أيوب لا يزالون أرقاء ، وأن حكم الرق مستصحب عليهم بالحقوق لبيت مال المسلمين ولا بد من بيعهم وعتقهم لتكون لهم أهلية سائرالتصرفات ، ولم يرجع العز عن فتواه تلك رغم محاولات الملك نجم الدين أيوب ، و اضطر العزإلى الاستقالة من منصبه ، والارتحال من القاهرة إلى الشام ، ولما علم أهل القاهرة برحيله، خرج العلماء والتجاروالنساء ، وقيل بل أهل القاهرة جميعا يطلبون منه عدم الرحيل ، فقال مستشارو الملك الصالح " إذا خرج العز بن عبد السلام من مصر ذهب ملكك" لما رأوه من حشود البشر التي تبعت قافلة العز بن عبد السلام ، فركب الملك الصالح بنفسه ولحق به واسترضاه و أعاده ووافق على تنفيذ بيع الأمراء المماليك ، و عند تنفيذ الحكم ، رفض العزبن عبد السلام أنّ يتم البيع داخل القصور أي بطريقة

شكلية ، و أصر على أن يتم البيع في السوق، وكان يوماً مشهودًا في القاهرة أن ينادى على أمراء المماليك بالمزاد، وبالطبع كان المشتري هو الأمير نفسه ، و أودعت قيمة البيع في بيت المال .

خرج السلطان أيوب في يوم العيد بالقاهرة في موكب عظيم ، والشرطة مصطفون على جوانب الطريق، وحاشيته تحيط به، والأمراء يقبلون الأرض بين يديه ، والعز رحمه الله يرى ذلك ، فنادى السلطان بصوت مسموع قائلاً : (يا أيوب! ما هي حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوئ لك ملك مصر، و أنت تبيح الخمور ؟) ، فقال : (أو يحدث هذا ؟).

قال : (نعم ، في مكان كذا وكذا ، حانة يباع فيها الخمر) ، قال السلطان: (يا سيدي هذا أنا ما عملته ، هذا من عهد أبي)

فهز العز بن عبد السلام رأسه وقال : (هل أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنَّا على آثارهم مقتدون؟)

فأصدر السلطان أمرًا بإبطال الحانة، ومنع بيع الخمور. ،وانتشر الخبر بين الناس ، ورجع العز إلى مجلس درسه، فجاءه أحد تلاميذه و قال له : (يا سيدي ! أما خفت ؟ فقال: (هون على نفسك ! والله يا بني لقد استحضرت عظمة الله تعالى ، فصار أمامي كالقط) .

تمّ ، بحمد الله